الرواية الفلسفية من التأويل نحو الفهم: إمكانات القراءة وسُبُل تشكيل رؤى العالم.

The Philosophical Novel from Interpretation to Understanding: Reading Possibilities and Forming of World's Visions.

روميسا كعبش *

تاريخ الإرسال: 2020/08/30	تاريخ القبول: 2021/06/10	تاريخ النشر: 2021/09/15

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى مقاربة مفهوم الرواية الفلسفية، والبحث في اشتغال التَّأويل على هذا النوع من الكتابة والإمكانات التي يتيحها لتحقيق الفهم. وذلك عن طريق تقديم قراءة تعتمد بدورها التأويل بوصفه استراتيجية تُمكِّن من استجلاء خبايا النصوص ومضامينها الصامتة، وتسمح بالبحث في تباين هذا الَّنوع من الكتابة بين الأدب والفلسفة.

وعليه، فإنَّ هذا الطَّرح يتأسَّس بناءً على افتراض مفاده أنَّ الرواية الفلسفيَّة بكونها أدباً وفلسفةً معاً تحمل في كلِّ مرَّة آفاقاً لتشكيل رؤى جديدة للذات والعالم، ذلك أنَّ الفن عموماً، والأدب على وجه الخصوص، يمتلك هذه الخاصيَّة الفريدة في إعادة تشكيل واقع العالم، ويتميَّز بحملِه رؤيةً استشرافيَّةً لما سيكون. بينما تمنح الفلسفة التَّساؤلات التي تتيح في كلِّ مرَّة للإنسان -وبالتالي العالم- أن يُراجع ويتدارك ويغيِّر رؤيته وواقعه.

المؤلف المرسل: روميسا كعبش romaissakab03@gmail.com

*جامعة محمد لمين دباغين سطيف2. مخبر النقد المعاصر وتحليل الخطاب.البريد المهني: r.kaabeche@univ-setif2.dz

الكلمات المفتاحية: رواية فلسفية، فهم، تأويل، أدب، فلسفة.

Abstract:

This article aims to clarify several aspects of the concept of philosophical novel, and searches the work of interpretation on this type of writing and ways to achieve understanding, by providing a reading that adopts the interpretative strategy which examines the contrast of this type of texts between literature and philosophy. We suppose that the philosophical novel – because it is philosophy and literature in the same time- carries each time horizons for forming new visions to the world, this because art/literature has always the possibility to change reality of the world, because of its outlook visions, while philosophy gives questions that allow human being to correct and change his reality.

***Key words**: Philosophical novel, Understanding, Interpretation.*

*** *** ***

مقدمة:

إنَّ الحديث عن الرِّواية الفلسفية يدفع بنا إلى الخوض في أصول العلاقة القائمة بين الفلسفة والأدب عمومًا، فإن انقطعت صلة الفلسفة بالشِّعر منذ أفلاطون Platon، فهو ذاته قد أسكنَ فلسفتَهُ نصًّا أدبيًّا غير الشِّعر، وهو السَّرد من خلال حواراته وشخصيَّاته الخياليَّة، ودأب على ذلك فلاسفةٌ كثر، أبرزهم على الإطلاق فريدريك نيتشه F.Nietzsche، وفي كلِّ مرَّةٍ، كان ذلك يمنح المشروعيَّة اللَّازمة لتشكُّل علاقةٍ وثيقةٍ بين الفلسفة والسَّرد أو الرِّواية، فاعتنقت الفلسفةُ الروايةَ بوجهٍ خاص، والتي أتاحت بإمكانيَّاتها الهائلة للفلسفة أن تعبِّر عن ذاتها بلا حدود، بعدما ضاقت الفلسفةُ ذاتُها بحدود المنطق الصَّارمة وقواعد المنهج والتفكير العقلي، فأنزلت الروايةُ الفلسفةَ من أبراجها النُّخبويَّة المُتعاليَة نحو العالم، هذا الإنزال الذي يمكن أن نسمِّيه أنطولوجيًّا، شبيهٌ بما طبَّقه مارتن هيدغر M.Heidegger تجاه الذات الترنسندنتالية التي أنزلها للوجود -بعد الظَّاهراتية الهوسرلية- في منحاه التأويلي الهرمينوطيقي، حين تحوَّل الفهم النَّاتج عن التأويل إلى كينونة، وأصبحت اللُّغة أساس الكينونة ومجالها. هذه العلاقة بين الفهم والكينونة والوجود واللُّغة هي جوهر ما يشتغل عليه التَّأويل في تطبيقاته على الأدب عمومًا والرِّواية الفلسفيَّة خاصَّة، في مسعاه إلى تحقيق فهمٍ ما للنَّص. هذا الأخير الذي يملك دوما

-حسب جورج غادامير G.Gadamer- ما يقوله لنا وكل ما علينا فعله هو أن نحسن الإنصات إليه. فينفتح النص بالتأويل على اللَّانهائية، ويتم إرجاء المعنى، وتتعدَّد ،تبعا لذلك- الفُهوم ضمن الحلقة التأويليَّة اللَّانهائيَّة، ليكون النص في كل مرَّةٍ قابلًا للقراءة وإعادة القراءة من جديد.

وبالنسبة للرِّواية الفلسفيَّة فإنَّ ممارسة التَّأويل تسمح لنا بتشكيل فهمٍ مغايرٍ، لا للمعنى الأدبي وحسب، بل لما يمكن الاصطلاح عليه بالمعنى الفلسفي المتضمَّن في الرِّواية، هذا الفهم الذي يُمنَح في كلّ مرَّة كينونة جديدة فقط بواسطة اللُّغة وداخلها. ومن خلال ما تمَّ طرحه نتساءل: ما هو مفهوم الرواية الفلسفية؟ وكيف يجمع هذا المفهوم بين كلّ من الأدب والفلسفة وما هي محدِّدات العلاقة المتشكِّلة بينهما؟ هل يتمكَّن التأويل من تقديم فهمٍ مغاير للرِّواية الفلسفيَّة؟ وكيف يقدِّم تأويل الرِّواية الفلسفيَّة إبدالًا لتشكيل فهمٍ جديد للفلسفة والعالم معا؟

نهدف من خلال طرح جملة التساؤلات السابقة إلى تشكيل رؤية عن علاقة الفلسفة بالأدب، كما تسعى هذه المقاربة إلى التعرف على كيفيَّات تماهي السَّرد والفلسفة داخل النَّص الرِّوائي إضافة إلى توضيح تطبيقات التَّأويل على الرِّواية الفلسفيَّة، كما نروم تقديم فهمٍ جديدٍ للرِّواية الفلسفيَّة ضمن إطار التَّأويل، مع توضيح مدى قدرة الرِّواية الفلسفيَّة على تشكيل رؤيةٍ مغايرةٍ للعالم.

ولبلوغ هذه الأهداف وتماشياً مع مقام البحث، فقد تم تناول هذا الموضوع في محورين أساسيين متبوعين بخاتمة لعرض النتائج؛ أما المحور الأول فهو: في مفهوم الرواية الفلسفية واحتوى بدوره عنصرين هما: 1- الرواية الفلسفية: أصول تشكل المفهوم. 2- مفهوم الرواية الفلسفية ومظاهر العلاقة بين السرد والفلسفة. بينما تناولنا في المحور الثاني: تأويل الرواية وإمكانات الفهم. واحتوى ثلاثة عناصر هي: 1-تأويل الرواية الفلسفية. 2-فلسفة أم رواية؟ 3-في البحث عن المعنى والفهم. معتمدين خلال كل ذلك المقاربة التأويلية لما تقدمه من إمكانات للقراءة وإعادة القراءة.

وقد توصلنا من خلال ذلك إلى عدَّة نتائج تضيف لهذا المجال أهمها: -فهم العلاقة الجدليَّة المتبادلة بين الفلسفة والأدب. – تقييم إمكانيَّة منح التأويل فهمًا جديدًا للرِّواية

الفلسفيَّة في إطارٍ يسمح بإعادة صياغة مفاهيم جديدة تسمح بدورها بإعادة تشكيل آفاق العالم. وإضافة إلى ذلك الوقوف على أهم القضايا المتعلقة بتأويل الأدب عموماً والرِّواية الفلسفيَّة على وجه الخصوص.

1.في مفهوم الرواية الفلسفية

يُعدُّ مصطلح الرواية الفلسفية من المصطلحات المثيرة للجدل سواء في مباحث النقد المعاصر أو في مباحث الفلسفة ذاتها، وذلك لجمعه بين حقلي الأدب والفلسفة وبين خصوصيَّاتهما التي تبدو -للوهلة الأولى على الأقل- مختلفة، ونظراً لتعدُّد الاتجاهات الفلسفيَّة والنقديَّة التي تناولت الموضوع بالدِّراسة والتَّنظير، فقد اتَّسم هذا المصطلح بالكثير من الضبابيَّة والتي انعكست على تطبيقاته خاصَّةً في العصر المتأخِّر حيث أخذت محاولات الفصل بين الأدب والفلسفة تتَّسع. نحاول في هذا المبحث إضاءة الجدل الذي يربط الأدب بالفلسفة، ثم نتطرَّق إلى علاقة الرِّواية بالتَّحديد بالفلسفة.

1.1 الرواية الفلسفية أصول تشكل المفهوم:

إنَّ علاقة الأدب بالفلسفة علاقة تقليديَّة تشكَّلت مع بدايات الفكر الفلسفي الأوَّل حين مورِست الفلسفة في شكل قصائد أو نصوص نثريَّة، ولعلَّ ما وصلنا من حوارات أفلاطون وكتابات أرسطو يُعَدُّ أول دليل على ذلك، بل إنَّ تاريخ الفلسفة يكاد يكون ذاته تاريخ الأدب، حيث يرى تيري هانتش (1944-2005) Thierry Hentsch أنَّ " النصوص البارزة-المهمة- في تاريخ البشرية [هي] منذ Banquet وأفلاطون (ملحمة جالجامش، التوراة، الإنجيل، الأوديسا، أغنية رولاند، وبعض النصوص الأخرى) لم يهتم هانتش بتلخيص أو التعليق على هذه النصوص المشهورة، وإنما اعتبرها قصصا أساسية بالنظر إلى مؤسسيها، إذ إن عدد هذه الكلاسيكيات العالمية كان محدَّدا، وهي نصوص تشكل في ذاكرتنا طريقا سرديًّا."[1] وهذه النصوص الكبرى تُمثِّل دليلاً على الطريقة التي بدأ بها تفكير الإنسان الفلسفي، فالفلسفة قبل أن تكون منطقاً وبرهاناً، كانت رؤيةً تشكَّلت ضمن الأدب –السَّرد والشعر- فاحتواها ومكَّنها من الانوِجاد، ولعلَّ السُّؤال المطروح هنا: هل كان الأدب قالباً يحمل الفلسفة وحسب؟ والجواب يتلخَّص في أنَّ الأمر يتجاوز مجرَّد العلاقة الشكلية؛ أي أنَّ الأدب لم يكن شكلاً لمضمون فلسفيّ وفقط، وإنَّما تتمثَّل العلاقة بين الفلسفة والأدب

في التَّداخل الذي يساهم فيه كلٌّ منهما بخصوصيَّته الفريدة، ورُؤاه ومضمونه، فالفلسفة "متداخلة مع السرد باعتبار (الوعي) المفهوم الفلسفي الذي يتداخل مع الموضوع تداخلا متلازما يكفل لهما (الوحدة العضوية)."[2] ويُحيل ذلك على التَّكامل الذي يُشكِّله ارتباط الأدب بالفلسفة، فالإنسان حين طرق باب الفلسفة أنتج فكراً فلسفياً يتجسَّد في شكل خطاب أدبيّ فنيّ تَحْكُمُه الجمالية وحتميَّةُ اللُّغة المُراوِغةُ، وكذلك حين أطلق العنان لخياله أنتج نصوصاً أدبيَّةً فائقةً تحكُمُها الرؤى الفلسفيَّة التي تَرجَمَت دهشة الكتابة الأولى، وحريَّة الفكرة ومثاليَّتها. ويستمدُّ هذا الطَّرح مشروعيَّته من مسارٍ تاريخيٍّ حافلٍ يثبت أنَّ فصل الأدب عن الفلسفة لم يكن إلَّا شكلاً من أشكال التعسُّف المنهجيَّة الحديثة المؤسَّسيَّة، والتي بالغت في تجزيء المعرفة، وكما يقول بيار ماشيري Pierre Macherey (1938): "فالأدب والفلسفة ممتزجان امتزاجا معقَّدا، هكذا كانا على الأقل إلى أن أقام التاريخ بينهما نوعا من القسمة الرسمية. تقع هذه الفترة في أواخر القرن الثامن عشر عندما بدأ لفظ الأدب يستعمل بدلالته الحديثة."[3] فقد تمَّ الانتقال نحو تحقيق خطاب فلسفيّ منفرد بمعقوليَّته وبرهانه، وخطابٍ أدبيّ مقابل منفرد بوجدانيَّته وجماليَّته، إلَّا أنَّ هذا الفصل قد غيَّب في الحقيقة جوهرَ الفلسفةِ وأسَّس لمفهومها الحديث الذي لا تعدو أن تكون الفلسفة فيه "بحث عقلي صرف قوامه الحجة والمنطق والاستدلال الحر، وأن الفلسفة في دأبها الدائم للبحث عن الحقيقة يتم التعبير عنها بهيئة أفكار واضحة متسلسلة تبعا لقوانين المنطق."[4] وهو مفهوم يناقض أو يكاد الأصول الفلسفية، ويناقض أيضا طبيعة الفلسفة التي لازالت تثبت منذ بداياتها أنَّها لا يمكن أن تتخلَّى وأن تنفصل عن الأدب، فقد "سعى الفلاسفة قديما وحديثا لاسيما شلنج ولسنج وجاستون باشلار يؤازرهم الشعراء أمثال شيلي، اللورد بيرون وطرفة والمتنبي إلى تحقيق حلم بعيد المدى، بتحويل الفكر إلى فن."[5] وزيادةً على ذلك، لازال الخطاب الفلسفي المعاصر يبهرنا بإبداعيَّته وجماليَّته؛ ويمكن أن نقدِّم مثالاً على ذلك الخطاب الفلسفي النقديّ للفيلسوف الفرنسي رولان بارت (1915-1980) Roland Barthes الذي تُعدُّ كتاباته إبداعاً نقدياً فلسفياً يصعب التمييز فيه بين الأدب والفلسفة. وإذا كان الأدب -شعراً كان أم نثراً- في مفهومه المعاصر لا يتحدَّد بشكله وقالبه، بل ولا يجوز من الأساس حصره في قاعدة محدَّدة -باعتبار النَّص سابقاً عن القاعدة-، فإنَّ الخطاب الأدبي يتحدَّد بشعريَّته التي تؤسِّسها

اللُّغة، وكذلك الخطابُ الفلسفيُّ فإنَّ فيه من الجماليَّة والإبداعيَّة التي تكاد تصل حدَّ الشعريَّة ما يجعله يتداخل ويمتزج بالشِّعر والفنون النَّثرية على حدٍّ سواء. "وإذا كان الأدب تفكيرا بالصور كما يرى أرسطو، فإنه موجود بالتالي في غالب الفلسفات بهذا القدر أو ذاك."[6] وبهذا يكون الفصل القائم بين الفلسفة والأدب تقسيماً خارجاً عن خصوصيَّتهما الأولى والطبيعيَّة، بل ويختزل البرهان التَّاريخي الذي يجمع بينهما والذي يوحِّدهما ويجعل من الفصل بينهما أمرا يكاد يكون مستحيلًا؛ ذلك أنَّ إخراج الفلسفة من دائرة الأدب يعني الانتقاص منها، وكذلك إخراج الأدب من دائرة الفلسفة يعني محْوَ إحدى أهمِّ خصائصه، وبهذه الطريقة يتشكَّل الأدبُ كخاصيَّةٍ للخطاب الفلسفي، وتتشكَّل الفلسفة كخاصيَّة للتفكير الأدبي.

2.1 مفهوم الرواية الفلسفية ومظاهر العلاقة بين السرد والفلسفة:

إنَّ الجدل الذي يحكم علاقة الفلسفة بالأدب ذاته هو ما يؤسِّس لجدلٍ أكثر حدَّة حول مفهومٍ جديدٍ نسبيًّا هو مفهوم الرِّواية الفلسفيَّة، فاختلفت الاتِّجاهات النقدية في تخصيص مصطلحٍ لهذا النَّوع من الكتابة الأدبيَّة وعمَّا إذا كان موجوداً من الأساس. ولعلَّ الإشكال الأكثر تعقيدا يكمن في أنَّ الدِّفاع عن تخصيص نوعٍ من الأدب والرِّواية بهذه الخاصيَّة (فلسفيَّة) سيعني حتما وجود نوع آخر من الأدب والرواية (غير فلسفي)؛ الأمر الذي يجعل ادِّعاء العلاقة بين، الأدب عامَّة والفلسفة، باطلاً ويُناقِض نفسه؛ فإذا كان كلُّ الأدب فلسفيًّا من الأساس، فلِمَ نخصِّص نوعًا محدَّداً من الرِّواية بهذه الصِّفة؟ قد يقول قائلٌ إنَّه يوجد الشعر والقصص العجائبيَّة والمسرح والرِّواية الاجتماعية والواقعيَّة... والكوميديا وكثيرٌ من أشكال النثر الأخرى. ولكن ألا يعزِّز هذا طرحنا؟ الفلسفة مُتَضَمَّنةٌ في كلِّ الأدب وبالتالي فإنَّ كلَّ شكلٍ من أشكاله محكومٌ بأن يكون فلسفيًّا. فكيف يتحدَّد مفهوم الرواية الفلسفيَّة والحال هذه؟

إنَّ الإجابة عن هذا التساؤل أمرٌ لا يمكن لهذه المحاولة البحثيَّة أن تدَّعي الوصول إليه، لعلَّ كلَّ ما يُتاح لنا هو محاولة الاقتراب من حدوده، فإذا كانت الرِّواية ذاتها -حسب غبريال غارسيا ماركيز (1927-2014) G.G.Marquez- لازالت لا تُعرَّف*، فكيف يمكن أن ندَّعي تعريف أحد أنواعها؟ إنَّ مشروعيَّة هذا الطَّرح تنطلق من قاعدةٍ أساسيَّةٍ مفادُها أنَّ

النص أصلٌ والقاعدة لاحقة وتابعة له، فالأدب/النص هو الأصل، والقاعدة تنبني بعد مقاربته وتحليله، ولذلك فإنَّه لا يمكن اعتماد قاعدة لتعريف الرواية وضبط آلياتها بالتحديد، إلَّا بعد كتابتها؛ أي أنَّه لا يجوز فرض مجموعة من القواعد على الكاتب ثم نطلب منه أن يكتب وفقها، لأنَّ ذلك يسيء لطبيعة الكتابة والأدب، فالقواعد تتأسس بناءً على الكتابة بما هي ممارسةٌ إنسانيَّةٌ أصيلة، وليس العكس.

إلَّا أنَّنا –مع ذلك- يمكن أن نقول إنَّ الرواية الفلسفية هي تلك الرِّواية التي تحمل بعداً فلسفيًّا في روحها، إنَّها تحمل رؤيةً متكاملةً للعالم، وتنشغل بالبحث في مصير الإنسان، وجوده وأصله، تناقضاته ونزاعاته الدَّاخلية. ويذهب باري ستوكر Barry Stocker إلى أنَّه "لا يوجد تاريخ للفلسفة دون رواية، ولا يوجد تاريخ للرواية دون فلسفة، وكذلك شكل الرواية غير واضح دون شكل الفلسفة، وشكل الفلسفة غير واضح دون شكل الرواية."[7] فهو يجعل من الفلسفة ملازمةً للرِّواية تاريخيًّا، وهذا التلازم التاريخي يؤدّي حسب ستوكر إلى حتميَّتين اثنتين، فيواصل قائلا:" هناك جانبان لهذه التعبيرات التي توضح التبعية المتبادلة بين الفلسفة والرواية. الأول هو أن تاريخ الرواية والفلسفة يتداخلان، والثاني هو أن ما يمكن أن تتضمنه الرواية والفلسفة –كأشكال كتابية- يجب أن يتداخل."[8] إذ تُشكِّل هذين الحتميَّتين الأساس الذي يجمع الفلسفة بالرِّواية وهي حتميَّة التَّداخل والامتزاج لا التبعيَّة وحسب. ويمكن توضيح ماهية الرواية الفلسفية أكثر بما هي أدب بالقول مع محمد شفيق شيًّا: إنَّ "الأدب الفلسفي، أدب أولا، ثم هو فلسفي،[...] يتمثل رواية ومسرحا وشعرا، أدبا يحمل بعدا فلسفيا، ويبقى مع ذلك فنا جميلا منفردا. هو يحمل من الفلسفة تلك الـ(لماذا) المقلقة [...] وهو لذلك فلسفي، بينما يبقى له من الفن جماليته وتفرده وأصالته وهو لذلك أدب."[9] فالرِّواية تكون فلسفيَّة حين تتمكَّن من تناول قضايا الإنسان العميقة. ولكن السُّؤال الذي يعيد طرح نفسه هنا: هل توجد روايةٌ غير فلسفية؟ إنَّ الأدب شعراً أو نثراً، والسَّرد خاصَّةً، مهما اختلفت العصور، يظلُّ حكاية الإنسان الأولى؛ "فالسرد شقيق الطبيعة الأول، بل عمق الإنسان، تلك المناجاة الداخلية التي جعلته متشققا منها هو وصوته، حوارية لا متناهية في رحالة الذات التي تجعله أنا والآخر في الآن ذاته."[10] إنَّ الإنسان في حقيقته (كلمة)، وكذلك لا يعدو أن يكون وجوده إلَّا كلمة في الكون، وكما تقول أنطولوجيا هيدغر Martin Heidegger (1889-1976)

فالإنسان ليس إلا لغةً ولا يمكن له التواجد إلَّا بها وعبرها، حين أصبحت اللغة "بيت الوجود الذي يسكن فيه الكائن الإنساني maison de l'etre"[11]، هذا الطَّرح الذي صاغه هيدغر في فلسفته يؤسِّس لكون الإنسان كائناً لغويًّا بالدَّرجة الأولى، وهو كائنٌ سرديٌّ انطلاقًا من وجوده وصولًا إلى فاعليَّته في الوجود. يكون الإنسان لحظة ميلاده كلمة، ويمارس أثناء مسيرته السَّرد في كلِّ شيء، إلى أن يتحوَّل،هو ذاتُه، إذا اكتمل وأَفَلَ وانتهى إلى رواية.

عندما يقول هيدغر الفيلسوف (يجب أن لا نمارس الفلسفة إلَّا في شكل قصائد) فإنَّه يعني الأدب عامَّة بجميع أشكاله، ولعلَّ الأنسب في عصرنا الراهن أن تتحوَّل مقولة هيدغر إلى: (لا يمكن أن نمارس الفلسفة إلَّا في شكل سرد أو رواية). على اعتبار المكانة التي أصبحت الرواية تحتلها، وإذا تعمَّقنا أكثر في هذه المقولة، أمكننا القول مع بيار ماشيري "إنَّ الفلسفة ليست سوى أدب[بما في ذلك الرواية]: كأنَّها ستجد حقيقتها النِّهائية في الأدب. حقيقةٌ صامتةٌ ملقاةٌ في هوامشِ نصِّه."[12] لقد اعتنقت الفلسفةُ الأدبَ بكلِّ أشكاله (الشعر ثم الرواية) مُشكِّلة مع كل نصٍّ جديد رؤيةً فلسفيَّةً جديدة للعالم، وقد أثبت التاريخ أن الأدباء والفنانين والكتاب قد أنتجوا فلسفةً بالدَّرجة ذاتها التي أنتجوا بها أدبا، وذلك أن "لإدراك الفنان أبعادًا أخرى أيضا، هي أشمل وأرهف لأن وعي الفنان أشمل وأكثر ترابطا، ولأنه وعي بالتالي (أملأ بالفلسفة)، أي أكثر تمثلا للفلسفة همًّا وتساؤلا وعمقا دون أن ينسحب ذلك ضرورة على أدواتها وتقنياتها."[13] وكذلك أنتج الفلاسفة أدباً جمالياً راقياً، قبل أن يجعل الفصل المؤسَّسيُّ من الفلسفة "مجرد صياغة عقلية ومفهومية لرؤانا عن العالم."[14] ويتَّضح من خلال ذلك كيف أن الفلسفة تمثِّل أصل وروح الأدب/الرواية والمعنى الإنسانيّ الكامن فيها، بينما يمثل الأدب/السَّرد/الرِّواية حياة الفلسفة وسبيل بقائها الوحيد؛ حيث تمتلك الرواية على وجه الخصوص ميزة أساسيَّة تتمثَّل في كونها أدب العامَّة، فأخرجت الرِّوايةُ، بميزتها هذه، الفلسفةَ من أسوار المؤسَّسات التي أُدخِلت إليها تعسُّفا وعنوةً، وكذلك أخرجتها من أسوار التَّنظيم العقلي الصَّارم لتُعانق الإنسان، بما هو إنسان، من جديدٍ على أرصفةِ الشَّوارع ووسط تجمُّعات سقراط الأولى.

2. تأويل الرواية الفلسفية وإمكانات الفهم

إنَّ الحديث عن تأويل الرِّواية الفلسفيَّة يقودنا إلى الحديث عن علاقة من نوع آخر تربط بين الفلسفة والأدب عموماً والرواية على وجه الخصوص، تتمثل هذه العلاقة في الممارسة النقدية التي تُمارَس على الأدب/الرواية، فقد قدَّمت الفلسفة دائماً قراءةً للنَّص الأدبي في إطار بحثها المتواصل عن المعنى المخبوء فيه، ولعلَّ أهمَّ فلسفةٍ حاولت مقاربة الأدب على الإطلاق -في تقديرنا- هي فلسفة الهرمينوطيقا المعاصرة كما صاغها كلٌّ من هيدغر وغادامير Hans George Gadamer (1900-2002) وذلك لانتهاجها طريق التأويل إجراءً وغايةً في الوقت نفسه، فقد مثَّلت الهرمينوطيقا فلسفةً في تأويل النُّصوص بغية تحقيق الفهم بما هو "فهم ما" أو الوصول إلى المعنى والذي يضلُّ غائبا ولا يمكن بأي حال ادِّعاء الإمساك به.

1.2 تأويل الرواية الفلسفية:

إنَّ التأويل –بوصفه محاولةً لتقديم قراءة للنص والعالم في مسار البحث عن المعنى-يمثِّل الآلية أو الاستراتيجية القرائية التي تتمكَّن من إبقاء النُّصوص حيَّةً، وذلك بفتحها على اللَّانهائية؛ حيث أنَّ القبض على المعنى النِّهائي للنص سيجعله نصًّا ميِّتا. وكما يؤسِّس لذلك رولان بارت فإنَّ النُّصوص القابلة للقراءة وإعادة القراءة هي نصوصٌ لا تموت، وهذا ما تقدِّمه فلسفة التَّأويل للأدب/الرِّواية، إنَّها تمنح النص القدرة على الحياة بتجديده، فهي إذ تقدِّم قراءةً جديدةً وفهماً جديداً لنصٍّ ما، تقدِّم في الوقت ذاته مشروعيَّة بقائه، كما تعيد بعث نصوص التراث التي أغلِقت من قبل لسبب أو لآخر، وتبث فيها الحياة بإعادة فهمها.

مع هرمينوطيقا هيدغر الأنطولوجية سيكون الفهم –بما في ذلك فهم النص- مكوِّن لكينونة الإنسان في الوجود "فالمسألة الرئيسية عند هيدغر ليست (كيف نفهم الوجود) وإنما (كيف أن الفهم هو كينونة)."[15] وبالتالي فإنَّ تمثلات فهم النص الأدبي/الرِّوائي ستكون أنطولوجيَّةً بامتياز، تحاول بلوغ درجة الفهم لـ "كلِّ ماهو إنسانيّ" في النص، حيث "لا تكشف الأنا عن نفسها إلا من خلال الحركة الهرمينوسية داخل خطاب اللغة.[16] وهي الحركة التأويليَّة الضروريَّة لفهم الذات والوجود إذ إنَّ وجود الإنسان لا يعدو أن يكون وجوداً مؤوَّلاً داخل اللغة التي هي –بتعبير هيدغر- بيت الوجود ومقره. هذه العلاقة

الأنطولوجية بين اللغة والإنسان تتجسَّد في أشكال كتابيَّة أهمُّها الأدب الذي لا يمكن أن يخلو من فلسفةٍ ما، لأنَّه تعبير عن رؤية الكائن للوجود، وإفصاحٌ عن فهمه لكينونته وعن تأويله للعالم.

تجدر الإشارة –في هذا المقام- إلى أنَّ نظريَّة التَّأويل أوالهرمينوطيقا عموماً قد أعادت فهم النص وقراءته بفصل النَّص عن مؤلِّفه وخلفيَّات ولادته، وإلغاء مقولة المعنى الوحيد أو الفهم القار أو الحقيقة المطلقة لصالح التعدُّدية والاختلاف، إذ يَفتحُ التَّأويلُ بابَ القراءة مع تأجيل المعنى وتعليق الأحكام المسبقة، "فالتأويل يتجه إلى النص باعتباره نصا قائلا لا نصا مقولا، نصا له كينونته ووجوده وله أن يعبر عنهما كائن يملك كينونته الخاصة، وهي كينونة عالم يحمله ضمن لغته."[17] أي أنَّه يعتبر النَّص عالمًا غامضًا يتجلَّى عبر رموز اللُّغة التي لا تستنفد أبدًا ما يمكن أن تقوله حسب غادامير، حيث لا توجد سلطةٌ يمكن أن تفكَّ لغز أو كثافة هذه الرُّموز بشكلٍ نهائي، إذ هناك دائمًا مكانٌ للبدء من جديد نحو تحقيق فهمٍ أفضل، ممَّا يفتح النَّص على لانهائيَّة المعنى، "فلا مطلق ولا شيء أخير أو ناجز ونهائي، لا شيء ربما إلا بحثنا عن المطلق: مشروع الإنسان الأزلي الأبدي."[18] وهذا ما يعيد الاعتبار لكلِّ قراءةٍ تاليةٍ. فقد أصبح النَّقد الأدبي مع نظرية التَّأويل لا يتمركز حول المعاني السَّابقة للنُّصوص، ولا يعترف بالمعنى الواحد. وبذلك فإنَّ الممارسة التأويليَّة للرواية الفلسفيَّة ستكون قراءةً في الرِّواية وخصوصيَّتها كشكلٍ فنيّ، وقراءةً في عمقها ومعناها الفلسفي. ولكن السُّؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمارس التأويل قراءته للرُّؤيَة الفلسفيَّة المتضمَّنة في النص؟ وماذا تمثل الرؤية الفلسفية لنص ما؛ هل هي المعنى أم الفهم؟

إنَّ تأويل الرُّؤيَةِ الفلسفية للنص الرِّوائي يمثِّل ممارسةً فلسفيَّةً من الدَّرجة الثَّانية، إذ أن التأويل استراتيجية قرائية نقدية -فلسفية- تسعى لتحقيق فهم ما، بينما يبقى "المعنى" مفهوماً معلَّقاً لا يدَّعي التأويلُ الوصول إليه بأيّ حال، وكذلك الأمر بالنسبة للرُّؤية الفلسفيَّة التي يحملها النص، فالتأويل يشتغل على تقديم فهم ما لهذه الفلسفة التي تُشكِّل النص ورؤاه، دون افتراض الوصول إليها، فتتشكل فلسفةٌ فوق الفلسفة ليتحوَّل الأدب ونقده معاً إلى خطابٍ فلسفيٍّ بامتياز، تنتج عنه ما يمكن أن نسمِّيه إشكاليَّة (الفهم

الفلسفي)، فيُطرح السؤال: هل تسمح الفلسفة للتأويل بأن يعيد تشكيل فهمها، وهل تملك الفلسفة قابليَّةً لتعدُّد الفهوم والاختلاف؟ ولإجابة هذا السُّؤال جانبين أساسيَّين؛ الأوَّل هو أنَّ الفلسفة بصيغتها المجرَّدة لم تكن لتسمح بمثل هذه الممارسة. أما الثاني فهو أنَّ الرِّواية الفلسفيَّة –بما هي أدب- هي التي سمحت بأن تُعاد صياغة الفُهوم السَّابقة للنَّص، وبالتالي حتى رؤاه الفلسفيَّة يمكن أن تُؤوَّل وتُعاد صياغتُها، وذلك لقانونٍ بسيطٍ هو أنَّ الأدب يختلف عن الفلسفة في أنَّه لا يهتمُّ لمعيار الصِّدق والكذب، "فالشاعر [الروائي] إنسان انفعالي والفيلسوف إنسان عقلي يتمنطق، ومعايير الشاعر [الروائي] ليست الصدق والكذب."[19] ولذلك فإنَّ الرِّواية تمنح للتَّأويل حق إعادة تقييم المشاريع الفلسفيَّة التي تحملها، بل والوصول حدَّ تقويضها في إطار النَّقد الذي يمارسه على الأدب.

2.2 فلسفة أم رواية؟

لقد شكَّلت الرِّواية والفلسفة دائمًا ثنائيَّة جدليَّة وتكامليَّة في الوقت ذاته، اكتمل نضجها في شكلٍ أدبيٍّ تمَّ الاصطلاح عليه بـ "الرِّواية الفلسفيَّة"، إلَّا أنَّها لازالت تحمل ذلك الجدل الوجودي الذي لا يمكن بأيِّ حال أن تتخلَّص منه لأنَّه مكوِّن من مكوِّناتها الطبيعيَّة.

يمكن القول في نظرتين مختلفتين: إنَّ الفلسفة كانت تصنع الرِّواية في أغلب الأوقات وتشكِّلها، بنفس القدر الذي كانت الرواية تحاول أن تشكِّل فلسفة جديدة في عمقها؛ يقودنا الرأي الأوَّل إلى أنَّ الرِّواية كانت تابعةً للفلسفة، فبعد أن ظهرت الوجوديَّة مثلاً كفلسفة انطبعت الرِّوايات بهذا الطَّابع، وكذلك بعد أن شاع الشك الدِّيكارتي اتَّسمت الرِّواية بهذه الفلسفة وكُتِبت أغلب الروايات وفقًا لهذه الرؤية، وكذلك بالنسبة للرِّواية الكلاسيكية والحداثية و... وهذا الرَّأي يؤدِّي بنا إلى القول إنَّ الفلسفة لم تكن تكتفي بمجرَّد نصوصها التَّنظيرية المجرَّدة العقلية والمنطقية -(وذلك على الرَّغم من كون الكتابة الفلسفيَّة في ذاتها تكاد تكون جماليَّة في أغلب الأوقات)- وإنَّما كانت تبحث عن نصٍّ أكثر ليونة يمكن أن يحتويها ويتمثَّلها في شكلٍ يحاكي الحياة الواقعيَّة بكلِّ أشكالها البدائيَّة وتناقضاتها، فيمنحها حريَّةً أكبر وصيغةً أوضح لتعبِّر عن ذاتها وتُعرَف. وأمَّا الرَّأي الثاني فإنَّه يؤدِّي بنا إلى القول إنَّ الإبداع الرِّوائي كان دائمًا سابقًا على ظهور الفلسفات وتشكُّلها، بل إنَّه يصنع الفلسفة والحياة والواقع معًا من خلال نظرةٍ استشرافيَّةٍ لـ"ما يجب أن يكون" دائمًا، وهكذا يقول محمد شفيق شيًّا: "إنَّ الأدب الوجودي المتسربل بخطوط التمزق

والخوف [...] هو في الحقيقة خلفية للوجودية واللاإنتماء كفلسفة. أن الوجودية كأدب هي قبل الوجودية كفلسفة، واللاإنتماء كواقع وكأدب، سابق على اللاإنتماء كفلسفة وقس على ذلك. هي أوّلاً لأنها الواقع والحياة والمضمون."[20] وكلا النَّظرتين معاً تؤسِّسان لمفهومٍ جديد لهذا النَّوع من الكتابة الذي يحاور العالم عبر رؤاه وأفكاره وأشكاله اللُّغوية، والتأويل وحده كفيلٌ بأن يُشكِّل الفهم في مسعاه للبحث عن المعنى، ويؤسِّس في الوقت ذاته لرؤيةٍ مخالفة لامحدودة ولانهائيَّة للعالم.

3.2 في البحث عن المعنى والفهم:

هل قدم التأويل معنى للرِّواية أم أنَّه قدم فهماً جديداً لفلسفة ما؟ ولعلَّ الإجابة تكمن في الجمع بين الجانبين، إذ قدَّم التَّأويل في إطار بحثه اللَّامتناهي عن المعنى –كما تمَّ التَّفصيل سابقا- معانٍ لانهائيَّة للنَّص الرِّوائي وهي فهومٌ تتعدَّد وفق قاعدة الاختلاف ولا يمكن بأيِّ حالٍ حصرها، وتمكَّن التأويل في الوقت ذاته من تقديم فهمٍ جديدٍ للفلسفة التي يحملها النص، فأن نُؤَوِّل يعني أن نفهم أفضل، انطلاقا من الأشكال اللُّغوية التي تنقل لنا العالم وتحوِّله إلى نصٍّ يفيض برؤية فلسفيَّة ما، هذه الرؤية الفلسفية التي تتحرَّر من منطق الفلسفة متلبسة بلباس جديد هو: بنية السَّرد بإمكانياته الهائلة، والتي تجعلها تتبلور في شكل يكون أكثر وضوحاً وتعبيراً وأكثر تأثيراً.

خاتمة:

من خلال كلِّ ما سبق، نصل إلى مجموعة من النتائج نعرضها في شكل نقاط كالآتي:

- إنَّ الأدب والفلسفة مصطلحان يتداخلان تاريخيًّا ومفاهيميًّا، في علاقة جدلية تعتبر مكوِّناً لكينونة كلٍّ منهما، وليست علاقةً جدليَّةً بين فرعين مختلفين من فروع المعرفة، إنَّما جدلٌ يتشكَّل من خلال التَّداخل والتمازج الذي يميِّزهما، والذي يعتبر خاصيَّة الأدب الفلسفي عموماً والرِّواية الفلسفيَّة على وجه الخصوص.

- يظلُّ مصطلح الرِّواية الفلسفيَّة عصيًّا على التَّعريف تتجاذبه نظريَّاتٌ عديدة واتِّجاهات مختلفة تُصعِّب من إمكانية الإحاطة به أو إعطائه تعريفاً قاراً ووحيداً يعبِّر عنه بطريقة شامِلة وكافية، إذ يستدعي تعريفه في كلِّ مرَّة الرُّجوع إلى مفهوم الرِّواية المُعقَّد واللَّامستقر

وكذلك الخوض في مفهوم الفلسفة والنَّظر في الأُطُر التاريخيَّة التي شكَّلته. ومع ذلك فإنَّ الرواية الفلسفية يمكن أن تُعرَّف على أنَّها شكلٌ كتابيٌّ نثري سردي بالتحديد، يتناول بالدرجة الأولى موضوعاتِ الفكر الإنسانيِّ الأصيل، وتساؤلاته الأنطولوجية، فالرواية الفلسفية تجمع بين فنية الأدب وعمق الطرح الفلسفي.

- إن الرواية الفلسفية تحمل دوما رؤى الإنسان لذاته ووجوده وعالمه، وتحمل تساؤلاته الكبرى حول الأصل والمصير، وبذلك يسمح التأويل -في مسعاه للوصول للمعنى الذي يظل غائباً ومؤجلاً- بتحقيق فهم ما في كل مرة، هو فهم أفضل، ممَّا يضمن للنص تجديده باستمرار، ويمنح الفلسفة الحياة في شكل أكثر ليونة وواقعية. فتأويل الرواية الفلسفية على وجه الخصوص يقدم إضافة مهمة للفلسفة ذاتها، إذ يمكن –تحت غطاء السرد- من مناقشة وخلخلة قضاياها الحاسمة دون الخوض في قوانين الفلسفة وعقلانيتها، ويمكن بالتالي طرح عديد القضايا الفلسفية بطرق أكثر حرية ووضوحا. فالتَّأويل، بذلك، بوصفه فلسفة وإجراء ضمن نظريَّة الهرمينوطيقا يُمكِّن من تقديم قراءة متجدِّدة للرِّواية الفلسفيَّة حيث يقدِّم مع كلِّ قراءة معنى مختلفاً للنَّص وفهماً مغايراً لفلسفته.

- تسمح تطبيقات التَّأويل على الرِّواية الفلسفيَّة بتشكيل رؤى جديدة للعالم في كل مرة يتم فيها صياغةُ فهم جديد للنص. فالرواية عبر آفاقها الرَّحبة والتي يجعل منها التَّأويل آفاقاً أوسع وأكثر تطلُّعاً، ضمن لانهائيَّة المعنى، تمنح الفلسفةَ هذه الميزة الفريدة بأن تكون في كل مرَّة فلسفة متجدِّدة وأكثر راهنيَّة.

الهوامش:

1 اليامين بن تومي وآخرون: فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، دار الأمان، ط1، الجزائر، الرياض، الرباط، 2014، ص ص 173، 174.

2 المرجع نفسه، ص278.

3 بيار ماشيري: بم يفكر الأدب؟ تطبيقات في الفلسفة الأدبية، تر: جوزيف شريم، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2009، ص22.

4 سلام كاظم الأوسي: دراسات في الشعر والفلسفة، دار الصفاء للنشر والتوزيع، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، عمان، بغداد، 2013، ص89.

5 المرجع نفسه، ص95.

6 محمد شفيق شيًا: في الأدب الفلسفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2009، ص111.

* يختم ماركيز مقالته بالقول: " وجدت نفسي ما أزال في مكاني، حتى أنني لم أجد غرابة في اضطراري إلى عض لساني كي لا أسأل من ألتقي به: قل لي ياأخي : اللعنة، كيف يمكن كتابة رواية؟" ينظر: الطيب بوعزة: في ماهية الرواية، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، 2013، ص 23-32.

7 Barry Stocker : Philosophy of the Novel, Palgrave macmillan, Springer Nature, Switzerland AG,2018,P257.

8 Ibid, p257.

9محمد شفيق شيًا، في الأدب الفلسفي، ص14.

10 اليامين بن تومي وآخرون: فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، ص69.

11 عبد الغني بارة: الهرمينوطيقا والفلسفة نحو مشروع عقل تأويلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت، الجزائر، 2008، ص226.

12 بيار ماشيري: بم يفكر الأدب؟تطبيقات في الفلسفة الأدبية، ص20.

13 محمد شفيق شيا: في الأدب الفلسفي، ص106.

14 محرز الحمدي: الفكر والحياة في فلسفة العلوم الإنسانية، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2010، ص137.

15 محمد شوقي الزين: الإزاحة والاحتمال صفائح نقدية في الفلسفة الغربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت، الجزائر، 2008، ص 36.

16 اليامين بن تومي وآخرون: فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، ص83.

17 عمارة ناصر: اللغة والتأويل: مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل الإسلامي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت، الجزائر ، 2007، ص22.

18 محمد شفيق شيًا: في الأدب الفلسفي، ص10.

19 سلام كاظم الأوسي: دراسات في الشعر والفلسفة، ص90.

20محمد شفيق شيًا: في الأدب الفلسفي، ص112.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊